

حان الوقت لازدراء الشيطان

القديس إينوكنديوس أسقف خيرسون

نقلتها إلى العربية أسرة التراث الأرثوذكسي

يا إخوة، لقد أنهيينا بنعمة الله صوماً كبيراً مقدّساً آخر. أولئك الذين أمضوه كما ينبغي قد أحرزوا الكثير، ولكن بالمثل، خسارة الذين لم يمضوه كما ينبغي ليست ضئيلة. لا تُرغم الكنيسة أحداً على الالتزام بفرائضها، ولكن من لا يلتزمون يعاقبون أنفسهم. حين يدخل الذين تعبوا حسناً في الصوم إلى فرح ربهم، لا بد وأن يشعر الضعفاء والمخالفون من أبناء الكنيسة بشيء من الحرمان والحسرة. سيكون حسناً إذا سمح الله لهم أن يعيشوا مجدداً حتى صوم كبير آخر لتصحيح التواني الحالي (مع أنه لم يعد ممكناً استرجاع ما قد فقد بالكامل)، وبالنسبة لمن لا ينال هذه الرحمة من الله، فإن الصوم الكبير قد فات إلى الأبد. ما الذي منعك عن الطاعة، وعن أن تبذر مع الآخرين لكيما تحصد الآن معهم؟ حين نعمل، يكون الأمر دوماً صعباً بعض الشيء، ولكنه مُفرح بالأكثر حين ينتهي العمل. أظن أن هذا اليوم مبهج للغاية لمن تعبوا طيلة الصوم الكبير المقدس. فليترتم هؤلاء بتواضع أمام مذبح الرب، وليشكروا الله على هذا! بدون نعمته، يا إخوة، ليس أنتم ما كنتم لثنها هذا العمل المقدس فحسب، بل ما كنتم حتى لتبدؤوا به.

ولكن، بفرحنا في نهاية هذا العمل، يجب ألا نفرح مثل سجين يغادر السجن؛ قد يعني هذا عدم إدراكنا لقيمة وحلاوة الصيام، فكل من عرف (هذه القيمة والحلاوة) لن ينقطع عن الصيام حتى في نهاية الصوم الكبير. وكيف لنا أن ننقطع؟ هل يمكن الكف عن الصيام الداخلي، المتمثل بالإمساك عن الأهواء، دون إهلاك النفس؟ ستكون نهاية هذا الصيام نهايةً لفضيلتنا. قد أوجد هذا الزمن المحدد (زمن الصوم) للامتناع عن الأطعمة، وليس عن الخطايا. ولكنه من السيء أيضاً أن نقصر ضبط النفس في الأطعمة على زمن واحد. أي طعام مؤذٍ للنفس مُحَرَّم في أي وقت، وكل من يأكله مُضراً بنفسه، في أي وقت يأكله (في زمن الصوم أو خارجه)، فإنه يخالف أحكام الصيام. لذلك، فإنه ليس من الضروري الانقطاع عن الصيام الجسدي بالكلية، كما يفعل الكثيرون. الانقطاع الكلي عن الصيام هو دليل أنك لم تُجبه؛ إذ هل من الممكن أن تعدل عن أمر قد أحببته بصدق لمدة طويلة؟ وهل من الممكن ألا تحب بصدق ما قد شفى نفسك؟ إذا تخلّيت بشكل كامل عن الصيام فهذا يظهر أنك صُمت بداعي الضرورة وليس القناعة، التزمت بعهود كعبد وسجين.

لا بُد وأنه قد ثبت لك بالخبرة أن الصوم سابق ومرافق دائم للصلاة، وأب للتأملات التقيّة، ومعلّم للمشاريع الصالحة، ومؤازر لأعمال الإيمان والمحبة الصعبة. لذلك، الجأ إليه فوراً في كل هذه الحالات. لأن هذه هي سمة العلاجات النافعة والمُثبتة؛ أنه يُستعان بها عند أول حاجة. وأفضل شيء على الإطلاق هو أن تجعل الصوم مرافقاً لك طيلة حياتك. لا ترتعد من هذه النصيحة، فالعمل بها لن يجعل حياتك مملّة أو صعبة كما قد يبدو لك، بل على العكس، سينجيك من شرور وأحزان وويلات كثيرة. أنت نفسك ستوافق حين تُدرك ما الذي يشكّل الصيام الدائم: ليس الأمر امتناعاً عن الطعام، بل تناوله على نحو لا يُرضي الجسد مطلقاً، فتنهض كل مرة عن

المائدة وأنت ما تزال جائعًا بعض الشيء وليس شعبانًا كما يحصل عادةً. هل هذا الجهاد الروحي صعب؟ ألا ينصح الأطباء أيضًا بذلك؟ ألا يعود ذلك بجسدٍ معافى؟ ولكننا نعدك بنفسٍ معافاةٍ مقابل ذلك. إذ ينبغي الاعترافُ والإقرارُ بأن النفس لا تعاني من شيءٍ بقدر ما تُعاني من الجسد، والجسد لا يعاني من شيءٍ بقدر ما يعاني من فرط الطعام والشراب.

ما قلته عن الصوم يجب قوله أيضًا عن التوبة والاعتراف؛ يجب ألا ننصرفَ عنهما في نهاية الصوم. لو كنا نخطئ ونسقط في وقتٍ واحدٍ محدّد، لأجلنا التوبة إلى ذلك الحين، ولكننا نخطئ في أوقاتٍ مختلفة؛ وحين نخطئ ينبغي إذًا أن نتوب ونعترف. هل نتنظر حتى يلتهب الجرح؟ إننا بالأحرى نحاول على الفور مداواته بمجرد أن نُجرح. ينبغي أن نتصرّف بنفس الطريقة مع الجراح الروحية؛ مع الخطايا. لذلك فإن المشفى الروحي مفتوح دائمًا ليكون من الممكن دومًا المجيء إليه للتداوي. إذا كان من غير الممكن إهمال جرحٍ جسديٍّ لمدةٍ طويلةٍ دون أن يشكل ذلك خطرًا (على الصحة)، فالأمرُ ينطبق على الجرح الروحي بالأكثر. إننا نستخفّ بحمل جرحٍ في النفس لمدةٍ طويلةٍ، ولكن ذلك ضلالٌ رديء. الخطيئة ستمّ مريع. إن لم توقّف فعلها بالتوبة السريعة فإنها تخرق كامل النفس وتصيبها بالعدوى لزمنٍ طويل. لهذا نصح عبيدًا تعساء للأهواء، لأننا لا نقمعها منذ البداية. وبعد ذلك، نتوب ونرى عبوديتنا، ولكننا غالبًا ما لا نعود قادرين على كسر رباطات الأهواء.

فيما يخصّ الاشتراك في الأسرار المقدسة، لا أعرف كيف يستطيع مسيحيٌّ حقيقي أن يحرم نفسه من هذا الطعام الإلهي طيلة السنة. مجرد هذا الحرمان وحده يُظهر أنه لا يعرف قيمة جسد ودم الرب، ومثل هذا الجهل يكافئ الجهل بخلاصه. لم يتصرف المسيحيون القدماء هكذا، فقد كانوا يتناولون في كل مرةٍ يُحتفل فيها بالقداس الإلهي، وهو ما نذكّره بالدعوة التي تُكرر في كل قداس: "بخوف الله وإيمان تقدموا!". تشير هذه الدعوة إلى أن جميع أولئك الحاضرين في القداس الإلهي يجب أن يتقدموا للمناولة.

إن وعي عدم نقاوة واستحقاق الإنسان، والرغبة بالاستعداد بشكل أفضل لهذا السر العظيم، أديا إلى ممارسة المناولة (غير المتواترة)، أي ليس بشكلٍ دائمٍ بل في أيامٍ وأوقاتٍ محددة. لكن، ينبغي ألا تُستخدم هذه الممارسة لتأييد كسلنا. ماذا لو قيل أن المرء سيوزع يوميًا في المكان كذا والمكان كذا؟ أظن أن حشدًا من الناس سيحضر كل يومٍ للحصول على بعض منه، وإذا ما تطلّب الأمر شيئًا من الاستعداد، لاستعدّ كثيرون من أجله كل يوم. ولكن الكنيسة تقدّم جسد ودم الرب بشكلٍ يومي ولا أحد يأتي ليتلقاهم! هل هذه إشارة جيدة؟ هل هو أمرٌ صحّي للنفس أن تنصرف عن الغذاء الروحي؟ ربما لم يكن لدى البعض وقتٌ للاستعداد. ولكن إذا لم يتقدم أحدٌ لتلقي الخبز السماوي فهذا يعني أن لا أحد مستحق، وإذا كان الجميع غير مستحقين، فماذا يمكن أن يقال عن مسيحيّتنا؟ ماذا سيقول الملك عن الخادم الذي يُدعى إلى المائدة كل يوم ويأتي مرة في السنة فقط؟

إذًا يا إخوة، بانفصالنا عن الأربعين يومًا المقدسة لا ينبغي أن نفصل عن تلك الوسائل الخلاصية التي تتكون منها (فترة الصوم). تقوم الكنيسة بتجميع هذه الوسائل جميعها معًا في وقتٍ واحد (زمن الصوم) بسبب ضعفنا وتشتت انتباهنا في أوقاتٍ أخرى. نُرشدنا إلى استخدام هذه الوسائل تحت إشرافها الخاص، لكيما يقوم

حتى عديمو الخبرة باستخدامها كما يجب، ولا يتركوها غير مستخدمة طيلة الفترة المتبقية من السنة. ومع ذلك، إذا احتجت في أوقاتٍ أخرى إلى دعوة الكنيسة وإشرافها، فلا تُدرة في ذلك. ليس في الكنيسة صومٌ واحد، بل أربعة، ويمكن لكل صومٍ منها أن يكون عظيمًا إذا لم تُضعفه بإسرافك؛ وسيتبع كل صومٍ منها يومٌ القيامة الأكثرُ إشراقًا إذا ما قُمت من خطاياك عبر التوبة.

هذه هي النصيحة التي شعرت أيها الإخوة أنّ من واجبي نقلها إليكم في نهاية الأربعين يومًا المقدّسة. لا تنسوا أيها الأحبة أن حياتنا بأكملها على الأرض يجب أن تكون صومًا. بدون ذلك، لن نصل إلى الفصح "في نهار ملكك الذي لا يغرب أبدًا" (الأودية التاسعة من قانون الفصح)؛ لن ندخل في فرح القيامة.

ما الذي يمكنني قوله لئن أمضوا الأربعين يومًا المقدسة دون أن يعيروها انتباهًا ولم يستخدموها مطلقًا لمداواة جراح ضميرهم؟ لا شكّ وأنكم تشعرون الآن ببعض الكآبة لعدم وفائكم بفرائض الكنيسة؛ من المرجح أنكم لم تتّمموها، لا بداعي الازدراء بسلطة الكنيسة (هل يستطيع الأولاد أن يزدروا أمّا تُعنى بغبطتهم الأبدية؟)، بل بالأحرى لأن شهوانيتكم قد استحوذت عليكم. أغرقت سمعكم، ولم تسمح لكم بالسّير في تلك الطرق المقدسة التي أرادت الكنيسة أن تقودنا عليها. الشهوانية والشيطان، إذ حيث هناك إسراف، يكون عدوٌ الله والفضيلة. إنه قاتل، يُبقيكم أسرى بشكلٍ غير مرئي، وهو الآن بلا شكّ يبتهج ويضحك عليكم كما على فريسته.

ولكن، يا إخوة، هل ترغبون حقًا بأن تكونوا أضحوكةً دائمةً للشيطان؟ كفاه ازدراءً بكم؛ حان الوقت لتزدروا أنتم به! أقول لقد حان الوقت؛ لأنه لا يكون ضعيفًا جدًّا كما في هذه الأيام (التي نقيم فيها تذكّار) آلام الرّب وموته. الآن هو الوقت الأنسب لأولئك الذين قبض عليهم أحياء في شركه ليعملوا مشيئته (تيموثاوس ٢: ٢٦) لكيما ينهضوا من شباكهم. وسوف تقومون إذا سارعتم إلى المشفى الروحي واضعين عنادكم ومرارتكم جانبًا، إذا ما بدأتم تبكون بمرارة على خطاياكم على مثال القديس بطرس. لقد خانَ (بطرس) المعلم، ومع ذلك فقد كان، لأجل توبته، بين أوائل الذين رأوه بعد القيامة. سيحصل الأمر ذاته لكم إذا ما التفّتم إلى الرب مثلما فعل هذا الرسول!

أمين

Source: St. Innocent of Kherson. It's Time to Abuse the Devil: A Homily for Holy Wednesday. Pravoslavie.Translation by Jesse Dominick. 4/20/2022. <https://orthochristian.com/145772.html>